رحلة الخلافة العباسية (٢)

العباسيون الضعفاء

الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية

محمد الهامي

جميع الحقوق محفوظة

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب

إلهامي ، محمد
العباسيون الضعفاء: الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية
تأليف/ محمد إلهامي . ط١. - القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٣
(٦٤٨ ص)، ٢٤ سم (رحلة الخلافة العباسية ج٢) تدمك: ٦-٨٩٤-٤٤١ - ٩٧٧ -٩٧٨
١ - العباسيون
أ. العنوان ٩٥٣,٠٨٦

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢١٦٩٢م

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة
الإدارة: ١٠ ش أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط
ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١١٢١٢٠٢٤٧٢
مكتبة اقرأ – الأزهر: ش ابن البيطار خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤٢١٦٧ محمول: ٠١١١٠٥٠٣٣٦٧
مكتبة اقرأ – جامعة القاهرة: ٤ ش حلمى بين السرايات مطلع كوبرى ثروت
ت: ٣٧٦٠٤٨٩٦ محمول: ٠١١١٠٥٠٣٣٦٨
www.Iqraakotob.com
E-mail:iqraakotob@yahoo.com

رحلة الخلافة العباسية

(١)

العباسيون الأقوياء

رحلة العباسيين منذ بداية الثورة حتى نهاية عصرهم الذهبي

(٢)

العباسيون الضعفاء

الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية

(٣)

آخر أيام العباسيين

الخلافة العباسية منذ سيطرة السلاجقة حتى سقوط بغداد

لمحة

قارئ التاريخ هو أولى الناس بالعظة والاعتبار..

فهو يقرأ في كل سطر سيرة قوم.. قد ماتوا..

فهو يعلم أنهم الآن بين يدي ربهم.. يُحاسَبون على أعمالهم..

حتى لو كانوا ملوكا في هذه الدنيا وعاشوا فيها أحقابا..

فهاهم الآن تركوا كل شيء..

وواجهوا أعمالهم..

أعمالهم جعلتهم الآن في الجنة..

أو النار!

محمد إلهامي

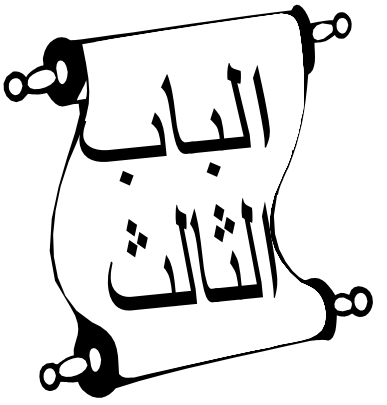

عصر سيطرة الترك

الباب الثالث: عصر سيطرة الترك

قال ابن خلدون:

«ربما يحدث في الدولة إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصارا وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جندا يكون أصبر على الحرب، وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف، ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره»(١).

***

ساهمت كثير من العوامل في انتقال الخلافة العباسية إلى هذا الطور الجديد: عصر سيطرة الترك!

إلا أن عاملَيْن رئيسين صنعا الفارق الكبير، الأول: طبيعة الخلفاء، والثاني: طبيعة الأجناد..

فطبقة الخلفاء نشأوا في الدعة والترف والرفاه على عكس ما كان من حال الخلفاء الأوائل الذين كانوا رجال دعوة قبل أن يكونوا مؤسسي الدولة، وحرص كل منهم على صناعة ابنه – ولي العهد – على عينه حتى نشأوا رجالا قادرين على سياسة الدولة وإدارتها.

وأما طبقة الأجناد ورجال الدولة فقد صاروا من الترك، وهم «بدو العجم» حسبما وصفهم الجاحظ، فما أبعد ما بينهم وبين الفرس ذوي الحضارة العريقة والأصول المدنية الضاربة في أعماق التاريخ، فهم قوم أشد خشونة وأبعد عن فهم طبيعة وتكوين حضارة كبرى، كما أن ارتباطهم بالعباسيين بدأ بعلاقة السادة والأجناد، بعكس ما كان بينهم وبين الفرس وهي علاقة أنصار الدعوة ثم رجال الدولة.

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ١٦٩.

لكل هذا سرعان ما اختلت العلاقة بين الخلفاء والأتراك، ودخلت الدولة في مرحلة الحكم العسكري –وهي مرحلة كارثية لكل الدول عبر التاريخ- ولم يعتدل الأمر إلا حين ظهر من بين البيت العباسي خليفة قائد قوي يقود الجيوش بنفسه، فاستطاع أن يعدل الميزان لفترة هو وابنه وحفيده ثم أورثوا الحكم خليفة ضعيفا صغيرا فعاد الاختلال إلى الدولة حتى انهارت تماما، وظل الانهيار يستفحل تحت الحكم العسكري حتى جرت سنة الله وتسلط على العراق قوم هم في مقام الغزاة المحتلين.. وهم البويهيون!

خلفاء هذا العصر:

- أبو جعفر محمد المنتصر بالله
- أبو العباس أحمد المستعين بالله
- أبو عبد الله محمد المعتز بالله
- أبو إسحاق محمد المهتدي بالله
- أبو العباس أحمد المعتمد على الله
- أبو العباس أحمد المعتضد بالله
- أبو محمد علي المكتفي بالله
- أبو الفضل جعفر المقتدر بالله
- أبو منصور محمد القاهر بالله
- أبو العباس أحمد الراضي بالله
- أبو إسحاق إبراهيم المتقي لله
- أبو القاسم عبد الله المستكفي

المنتصر بالله

(من شوال ٢٤٧ هـ حتى ربيع الآخر ٢٤٨ هـ)

كان المنتصر أعين، أقنى، قصيرا، مهيبا، جيد البدن، أسمر ضخم الرأس عظيم البطن، على عينه اليمنى أثر، وهو مولود في سامراء (٢٢٢هـ) من جارية رومية اسمها حبشية[١].

***

كان أول ما فعله المنتصر أن استدعى أخويه المعتز والمؤيد ليلا وألزمهما بالبيعة له، أو بالأحرى لم يكن أمامهما في هذا الظرف إلا أن يستجيبا ويعلنا بيعتهما لأخيهما المنتصر، وأورد الطبري نصا طويلا في البيعة التي أُلْزِموا بها، ثم ادَّعى المنتصر أن القائد التركي الفتح بن خاقان هو الذي قتل أباه المتوكل، لذا قتله قصاصا[٢].

وفي صباح اليوم الأول من الخلافة حدثت حركة شغب من بعض الجنود ومن الناس حين انتشر خبر مقتل المتوكل، وتجمع كثير منهم عند باب القصر، وفشل حُجَّاب المنتصر في صرفهم سلما، فكلف المنتصر فرقة من جيشه بتفريقهم عنوة فنجحوا بعد معركة مات فيها ما بين الستة إلى الثلاثين نفسا منهم[٣].

وكان أول إجراء إداري يتخذه المنتصر سيئا وذا وقع سيئ عند الرأي العام، فقد وَلَّى المظالم لأبي عمرة أحمد بن سعيد من الموالي مما جعل البعض يقول:

يا ضيعة الاسلام لما ولي ... مظالم الناس أبو عمره

صُيِّر مأمونا على أمة ... وليس مأمونا على بعره[٤]

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٢، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٣٧٩.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤١، وابن الجوزي: المنتظم ١١/ ٣٥٦، ٣٥٧.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٤٣.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٤٥.

ثم اتخذ المنتصر قرارا بترك «المتوكلية» وعاد إلى سامراء لتكون عاصمة ملكه[1]، وبهذا انتهى عصر المتوكلية سريعا، يكاد ألا يكون قد بدأ، ولو أن للمدن لسانا يحكي تاريخها لسمعنا عجبا من العجب.. فمن ذا الذي توقع قبل أيام أن تكون هذه هي الأيام الأخيرة للمدينة الملكية التي تبدو وكأنها تفتح ذراعيها لأيام باهرة؟!!

وخالف المنتصر سياسة أبيه مع العلويين، وكان من أول قراراته عزل صالح بن علي عن المدينة وتولية علي بن الحسن بن إسماعيل وأوصاه بأهل المدينة والعلويين قائلا: «إني أوجهك إلى لحمي ودمي... فانظر كيف تكون للقوم وكيف تعاملهم»[2]، وسمح لمن أراد من الناس بزيارة قبر علي والحسين رضي الله عنهما، وآمن العلويين وكانوا خائفين أيام أبيه وأطلق وقوفهم[3].

وعلى رغم هذه الإجراءات التي بدا منها أن الأمر استقر للمنتصر سريعا إلا أن الحقيقة كانت غير ذلك، لقد كان الوضع خطيرا أمام المنتصر، فتلك هي المرة الأولى التي يتجرأ فيها رعايا الدولة الذين هم أيضا من غير العرب على قتل الخلفاء، وعلى رغم ما كان بين المنتصر والأتراك من الود قبل هذا إلا أنه علم أن وصول نفوذهم في الدولة إلى درجة قتل الخليفة وتولية غيره يعني أنهم صاروا الأسياد المتحكمين فعلا في أمر الدولة، ومن غير شك فإن كثيرا من الأفعال التي قام بها القادة الأتراك في تلك الأيام الأولى لخلافته كانت تعني أنهم رأوا أنفسهم الأعلى يدا والأقوى من كل قوة ولو كانت هيبة الخلافة ومكانتها.. لهذا نرى تَحَوُّل المنتصر من حبهم إلى بغضهم وكان يسميهم «قَتَلة الخلفاء»! وبدا كأن المنتصر سيحاول تكرار سيرة أبيه في محاولة التخلص من النفوذ التركي.

وبطبيعة الحال كانت لحظة مناسبة ليختبر فيها الروم سلطة الخليفة الجديد، فهاجمت الجيوش الرومية أرض الشام، فأمر المنتصر بتجهيز جيش كبير بقيادة القائد التركي القوي وصيف (٢٤٨هـ)، كما أرسل المنتصر إلى نائب العراق محمد بن عبد الله بن طاهر كتابا بليغا

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٣.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥١٣ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٤٩.

لتحريض الناس على الجهاد، وأوصى المنتصر وصيفا بأن يبقى في الشام بعد انتصاره لأربع سنين لينظم فيها أمر الثغور ويجاهد هناك كلما احتاج الوضع إلى الجهاد، إلا أنه أراد في الوقت نفسه أن يُبعد وصيفا عن مركز الخلافة ويتخلص من وجوده ونفوذه(١).

ومثلما كان الروم يختبرون، كانت حركات التمرد تختبر أيضا، فقاد محمد بن عمرو الشاري تمردا في ناحية الموصل من أرض الجزيرة الفراتية فأرسل المنتصر قائده إسحاق بن ثابت الفرغاني فأسره وزعماء تمرده ثم أرسلهم إلى سامراء فقُتِلوا.

وقد التقت رغبة المنتصر مع رغبة الأمراء الأتراك في أمر آخر، ذلك هو خلع المعتز والمؤيد من ولاية العهد وتولية عبد الوهاب بن المنتصر، بالنسبة للمنتصر فالأمر مفهوم؛ حب الولد والتخلص من الأخوين المنافسين والاحتفاظ بسلالة الخلفاء في نسله، وبالنسبة للأتراك فإن المنتصر هو حليفهم الأقرب من المعتز والمؤيد، بل إن المعتز والمؤيد يكنان لهم العداوة لما بلغوه من النفوذ والقوة التي وصلت إلى قتل الخليفة، كذلك فإن إنشاء عبد الوهاب بن المنتصر تحت رعاية الأتراك وعينهم يجعلهم يأمنون ويطمئنون على استقرار نفوذهم وسلطانهم(٢).

أجبر المنتصر أخويه المعتز والمؤيد على خلع أنفسهما من ولاية العهد، وتختلف الروايات فيما إذا كانا قد تنازلا خوفا بعد التهديد، أو تنازلا بعد أن صار التهديد حقيقة فضُرِبا وقُيِّدا وما إلى ذلك، غير أن المنتصر غَلَّف هذا الإجراء بخشيته على إخوته «أَتَرَيانِي خلعتكما طمعا في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط وإذا لم يكن في ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبي أحب إلي من أن يليها بنو عمي، ولكن هؤلاء وأومأ إلى سائر الموالي ممن هو قائم وقاعد ألحوا عليَّ في خلعكما فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما فما تریاني صانعا أقتله. فوالله ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل عليَّ»(٣).

على كل حال أعلن الأخوان (٢٣ صفر ٢٤٨هـ) تنازلهما عن ولاية العهد واعترفا بأنهما

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٥، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٧، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣، ٤.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٨.

عاجزان عن الخلافة وأن المسلمين في حِلٍّ من بيعتهما في حضرة كبار رجال الدولة، ثم أعلن هذا على العامة وأُرسل به إلى الأقطار[١].

لو أن المنتصر كان يعلم أجله في هذه الحياة لتغير وجه التاريخ، لقد قتل المنتصر أباه ثم أجبر أخويه على التنازل عن ولاية العهد، وهو لا يعلم أنه سيموت بعد شهرين فحسب!!

روي أنه بعد أن تولى الخلافة رأى أباه في المنام يلومه ويخبره بأنه لن يعيش إلا قليلا، وروي أنه رأى ما يفيد أن عمره في هذه الحياة هو خمس وعشرون سنة فقط، وهي روايات تناقلتها كتب التاريخ بدون سند ولربما تكون صحيحة، لكن الثابت أنه كان يوطد الأمر لنفسه ثم لولده وهو لا يعلم أنه في لحظاته الأخيرة!.. وهذه السطور ذاتها التي تقرأها، لا الكاتب يدري ولا القارئ كم يعيش من بعدها؟!

أصاب المنتصر مرض ظل يشتد به حتى مات فيه (٥ ربيع الآخر ٢٤٨هـ)، بعد خلافة ستة أشهر فحسب! وقد دعت هذه الوفاة المفاجئة ظنون المؤرخين إلى أنه ربما يكون قد قُتِل، لا سيما والمتهم موجود: وهم الترك، والدافع موجود: سعي المنتصر في التخلص منهم والتوطيد لنفسه، فرُوِي أن الطبيب الطيفوري وضع له السم في آلات الحجامة فمات منها حين احتجم[٢].

قال المسعودي: «كان المنتصر واسع الاحتمال، راسخ العقل، كثير المعروف، راغبًا في الخير، سخيًّا، أديبًا، عفيفًا، وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق، وكثرة الإنصاف، وحسن المعاشرة، بما لم يسبقه خليفة إلى مثله. وكان وزيره أحمد بن الخصيب قليل الخير، كثير الشر، شديد الجهل»[٣].

وبموت المنتصر –أو مقتله– من بعد مقتل المتوكل كانت الخلافة العباسية قد دخلت بالفعل عصر سيطرة الترك، حيث الخليفة «في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه»[٤].

* * *

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٧ وما بعدها، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣، ٤.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥١، ٣٥٢، والمسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥١٣، ٥١٤ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب)، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٢١.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥١٤ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).
(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٤٠.

المستعين بالله

(من ربيع الآخر ٢٤٨ هـ حتى محرم ٢٥٢ هـ)

هو أبو العباس أحمد بن محمد المعتصم، وقد تولى الخلافة وهو في السابعة والعشرين من عمره، إذ هو مولود في عام (٢٢١هـ)، وكان جميلا أبيض يميل إلى الحُمرة، أشقر، عريض المنكبين، وكان في وجهه أثر جدري، ورغم أنه ألثغ في حرف السين إلا أنه كان بليغا أديبا، وأمه جارية صقلبية اسمها «مخارق»[١].

***

كان الوزير أحمد بن الخصيب العقل المدبر أيام المنتصر، فما إن مات المنتصر حتى سارع بجمع القادة الأتراك الذين كان أهمهم: بُغا الكبير، وبُغا الصغير، وأتامش. وسعى أحمد بن الخصيب في أن يجمع قادة الجنود الأتراك والمغاربة[٢] والأشروسنية[٣] وأن يوحدهم على ما سيصدر عن اجتماع الثلاثة الكبار (بغا الكبير، وبغا الصغير، وأتامش) فتم له ما أراد[٤].

كان الأتراك رافضين لحكم المعتز أو المؤيد لأنهما من ولد المتوكل، فسعوا في أن يكون الخليفة من نسل المعتصم، ووقع اختيارهم على أحمد بن محمد بن المعتصم، والذي لقب بـ«المستعين بالله»[٥] وإن كان بعض القادة لم يُرضهم هذا الاختيار[٦].

وقعت في أول أيام المستعين بعض الاضطرابات التي كان مصدرها أن بعض الجند الأتراك لم يرضوا بالمستعين وأرادوا مبايعة المعتز بالله بن المتوكل، وخرجوا يهتفون: يا معتز يا

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٣٨٠، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٥/ ٨٤.
(٢) المغاربة: هم الجند المنتسبون إلى الشام ومصر والشمال الإفريقي، فهذه بالنسبة إلى العراق «مغرب».
(٣) الأشروسنية: هم الجند المنتسبون إلى أشروسنة من بلاد الترك ما وراء النهر!
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٣، ٣٥٤.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٣، ٣٥٤، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٦.
(٦) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٨.

منصور، فأدى هذا إلى أن يساندهم ويدعمهم كل من لم يرض من الناس بهذا التحكم التركي وأراد ولاية المعتز التي تعتبر الولاية الشرعية (باعتبار أنه تنازل عنها مضطرا، وما زال عبد الوهاب بن المنتصر صغيرا)، إلا أن هذه الحركة هُزِمت أمام جمهور الجيش الذي كان متماسكا خلف اختيار قادته للمستعين بعد قتال استمر عدة أيام، حفلت بالاضطراب وانتهبت فيه كثير من الأماكن في بغداد وغيرها، ثم استقر الأمر للمستعين[1].

وبهذا يكون النفوذ التركي قد استقر وتمكن تماما، فهاهم بعد أن قتلوا خليفة، وخلعوا وليين للعهد، صاروا يقررون من الخليفة القادم، ليس هذا فحسب، بل إن الخليفة القائم يعلم أنه لولا الأتراك ما كان ليصل إلى كرسي الخلافة على عكس المتوكل والمنتصر اللذين كانا وليين للعهد.

كان المستعين كما قال الشاعر:

خليفـــــــــة في قفـــــــــص بـــــين وصـــــيف وبغـــــا
يقـــــول مـــــا قـــــالا لـــــه كـــــما تقـــــول الببغـــــا[2]

في ضوء هذا نفهم كيف أن المستعين أبقى على الحال كما هو، فظل كاتبه هو الوزير أحمد بن الخصيب، وجعل وزيره القائد التركي أتامش وعهد إليه بتربية ابنه العباس[3]، حتى حين مات بغا الكبير – أكبر القادة الأتراك – بعد ولاية المستعين بشهرين (جمادى الآخرة ٢٤٨هـ)، عهد المستعين بما كان له من أعمال ومناصب إلى ابنه موسى بن بغا مكانه بل أضاف إليه مهمة ديوان البريد أيضا، وكانت وفاة بغا الكبير كاشفة عن المكانة التي وصلها الأتراك، إذ ترك ما قيمته عشرة ملايين دينار، وجواهر نادرة قيمتها ثلاثة ملايين دينار، وغير ذلك[4].

وسارت خلافة المستعين أيامها القصيرة غير مستقرة، بل تزداد اضطرابا وارتباكا، وقد نشأ هذا من ثلاثة عوامل:

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٧٠.
(٢) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥٢٣ (ط الشركة العالمية للكتاب).
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٤، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٣٨٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٠، ١٥٤.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٥، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥١.

١) الغضب الشعبي الداخلي

مما وصل إليه حال الخلافة التي لم يعد أدنى شك في أن الأتراك هم من يسيرونها كما يشاءون، فلقد ذهب المتوكل الذي حاول تحجيم الأتراك قتيلا، ثم مات المنتصر قبل أن يعيد الخلافة إلى هيبتها أمام الأتراك، وهاهم قد أتوا إلى الخلافة برجل ليس أكثر من صورة ولا يملك أن يأمرهم ولا ينهاهم، ثم إن أبناء الخليفة المتوكل (المعتز والمؤيد) في السجن عن رأي الأتراك ورغبتهم! وقد أُجْبِرا على بيع أملاكهما بثمن بخس، فلم يُبْق المستعين للمعتز إلا ما يأتيه بعشرين ألف دينار في السنة وللمؤيد ما يأتية بخمسة آلاف دينار في السنة[١].

هذا الغضب الشعبي التقى مع سنة اختبار الخلفاء في أوائل عهدهم إذ تنفجر بعض تمردات هنا وهناك في تلك اللحظات التي تضعف فيها الدولة ويكون الخليفة فيها في أضعف أوقاته، مما جعل التمردات كثيرة في عهد المستعين.

بدأت التمردات برجل في الجزيرة الفراتية اسمه أبو العمود الثعلبي فتوجه إليه القائد التركي أنوجو فقتله في بلدة كفر توثى[٢] (٢٥ ربيع الآخر ٢٤٨هـ)[٣]، ثم تمرد أهل حمص وطردوا الوالي عليهم كيدر بن عبيد الله (٢٤٨هـ) وهزموه، فولى المستعين عبد الرحمن بن حبيب الأزدي فتوفي قبل أن يصل[٤]، فتوجه إليهم الفضل بن قارن فحاربهم وقتل كثيرا منهم ثم أخذ مائة من زعمائهم وأشرافهم فأرسلهم إلى سامراء، وهدم سور المدينة لتبقى المدينة بلا سور يحميها فلا يحاولون التمرد مرة أخرى[٥].

ثم اشتعلت انتفاضة شعبية في بغداد (١ صفر ٢٤٩هـ)، وبالتحديد في الجزء الشرقي منها، ضد تحكم الأتراك وتسلطهم على الخلافة ولعبهم بها واستخفافهم بالخلفاء العباسيين، وشارك

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٥، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥١.

(٢) بلدة في منطقة الجزيرة الفراتية، وهي الآن في سوريا بذات الاسم القديم مع تحريف زمني جعلها كفر سوسة.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٥، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٨، ٢١٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥١.

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٥٩، و الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٥، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٠/ ٤٠١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥١.

فيها بعض فرق الجنود من غير الأتراك، فحاصروا سجن بغداد وأخرجوا من كان فيه، وقطعوا الجسر الواصل بين طرفي بغداد وأحرقوا الجسر الآخر، وخربت كثير من الأماكن[1].

ثم وصلت هذه الانتفاضة إلى عاصمة الخلافة سامراء (٢١ ربيع الأول ٢٤٩هـ)، حيث حاصر أهل سامراء السجن وأخرجوا من كان فيه، وفشلت كتيبة من الموالي يقودها زرافة في إخماد هذه الانتفاضة بل عادت هي مهزومة، فحينئذ نزل الجيش بقوته الأصلية يقودهم وصيف التركي وأتامش وبغا الصغير وانضم إليهم عامة الأتراك، فاستطاعت القوة حسم الموقف وإخماد هذه الانتفاضة. وكان من أكثر المتضررين في هذه الانتفاضة هم المغاربة الذين أُحْرق حيُّهم، فظلت تحت الرماد نيران كانت تعود للظهور، كما حدث في مظاهرات (٣ جمادى الآخرة ٢٤٩هـ)[2].

٢) الخلافات بين القادة الأتراك

حيث ضعف حال الخليفة وانتهت هيبته من النفوس، فكان أول سبيل أن اتحد الأتراك وهم الذين يمثلون الجناح العسكري على الوزير أحمد بن الخصيب ممثل الجناح المدني فاستطاعوا إيغال صدر المستعين عليه فنفاه إلى المغرب[3].

ثم بدأ القادة الأتراك أنفسهم يختلفون على الأموال والغنائم، لا سيما أن المستعين قد ترك أمر الخلافة إلى ثلاث شخصيات يديرونه: القائد أتامش التركي الذي كان أقرب الناس إلى الخليفة والقائم على تربية ولده العباس، والخادم شاهك، ومعهما أم الخليفة «مخارق» وقد كانت جارية صقلبية وكانت تتصرف في أموال الخلافة بلا رقيب!

كانت كل الأموال الواردة إلى الخلافة تصير إلى هؤلاء الثلاثة، وكان أتامش أكثرهم إنفاقا وإسرافا فيأخذ من الأموال أكثر من غيره باسم رعاية ولد الخليفة العباس بن المستعين، فحَرَّك هذا الأتراك حسدا على أتامش، فاجتمعوا وانطلقوا إليه (١٥ ربيع الآخر ٢٤٩هـ)

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٧، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٢٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٨، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٢١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٤.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٨.

وهو في قصر الخليفة إذ حاول الهرب منهم، ولكنهم اقتحموا عليه قصر الخليفة فأخذوه وقتلوه ولم يستطع الخليفة أن يجيره ولا ينقذه، ثم نهب الأتراك أمواله وثرواته[١] بل أظهر موافقته وأمر بلعنه في الآفاق[٢].. وكان هذا بمثابة السطر الأخير في ضياع هيبة الخليفة المستعين أمام الأتراك!

٣) اضطراب حال الجهاد

جاءت الأخبار من الثغور بفاجعة أخرى، تلك هي مقتل القائدين الكبيرين عمر بن عبيد الله الأقطع (١٥ رجب ٢٤٩هـ) وعلي بن يحيى الأرمني على جبهة القتال مع الروم، وكان قتلهما بمثابة الكارثة التي اهتزت لها عواصم المسلمين،[٣] ويراه بعض المؤرخين[٤] إحدى النقاط الحاسمة في الصراع الإسلامي البيزنطي، وكان من أسباب مقتلهما ضعف حالة الجهاد واضطراب أمر الثغور وعدم قيام الخلافة بواجبها. فكان هذا مما زاد في حالة الغليان الشعبي والفوضى، ثم تصدى الأغنياء من أهل بغداد وقادوا حملة تبرعات وإنفاق لدعم جيوش المسلمين التي تخلى عنها الحُكَّام الذين انشغلوا بالترف واللهو، كما قادوا حملة نفير تنادي في الناس بالجهاد، فاجتمع كثيرون من فارس والأهواز ومناطق الشرق لغزو الروم[٥].

انفجار التمردات

هذه الظروف القائمة في قصر الحكم وعاصمة الخلافة هي الظروف المثلى لانفجار التمردات في سائر أنحاء البلاد الإسلامية، يقول ابن الطقطقي: «واعلم أنّ المستعين كان مستضعفا في رأيه وعقله، وكانت أيّامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب»[٦].

١) يحيى بن عمر العلوي - الكوفة

وينتهي نسبه إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وينتهي نسب أمه إلى

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٨، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٢١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٤.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٩.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٧، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٠.

(٤) د. علية الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية ص١٢، ١١٩.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٧، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢١.

(٦) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٣٩.

جعفر بن أبي طالب، فهو عربي صميم شريف النسب من جهتي الأب والأم، وبدأت قصته منذ نزلت به شدة وفقر فذهب إلى سامراء وطلب من وصيف أن يجعل له رزقا (راتبًا) فرفض وصيف وأغلظ عليه القول[1].. ولا شك أنها كانت لحظة قاسية، أن يتحكم جندي تركي في واحد من العرب بل من آل البيت النبوي، شريف النسب، وما زال العهد بالمنتصر وإحسانه إلى العلويين قريبًا!

عاد يحيى بن عمر إلى الكوفة، واجتمع حوله كثير من الأعراب ومن أهل الكوفة –الذين استقر فيهم حب العلويين– وقاد بهم يحيى بن عمر السيطرة على الكوفة، ودخلها واستحوذ على ما في بيت المال فلم يجد إلا ٢٠٠٠ دينار و٧٠ ألف درهم فحسب (وهذا يُنبئ عن درجة الفساد ونقص الأموال في الدولة) وحرر السجناء من سجني الكوفة، ومع كل تقدم كان ينحاز إليه عدد أكبر من الأتباع، فانضم إليه الزيدية –الذين هم على المذهب المنسوب لجده زيد بن علي– وكل محسوب على الشيعة، كما والاه كثير من أهل بغداد من الشيعة وأنصار العلويين، وأحبه الناس أكثر من أي علوي خرج قبله فيهم، وقد انتصر يحيى بن عمر في اشتباكين مع جنود الخلافة العباسية في الكوفة وفي ظاهرها، فقوي أمره وتمكن من الكوفة وما حولها[2]، فصار بهذا في مرحلة اللا عودة وأصبح من المحتم عليه أن يمضي في طريق جمع الأموال والأنصار وتجهيز السلاح والعتاد لمواجهة جيوش الخلافة التي كانت قد انطلقت إليه بالفعل.

أمر محمد بن عبد الله بن طاهر (والي بلاد العراق) واليه على الكوفة (أبا أيوب بن الحسين ابن موسى) بقتال يحيى بن عمر، وكان أبو أيوب قد انسحب إلى خارج الكوفة حتى وصلته جيوش من قبل الخليفة ووالي العراق، وكانت الخطة الأفضل بالنسبة ليحيى بن عمر هى الاعتصام بالكوفة والدفاع عنها، فما زال أغلب أتباعه من العامة لا من محترفي القتال وما زال حالهم بالسلاح والعتاد أقل بكثير من جيوش الخلافة، غير أن بعض أتباع يحيى بن عمر اقترح عليه أن يستعمل سلاح المفاجأة فيخرج إليهم بسرعة ويغير عليهم إغارة خاطفة تحقق نصرا

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٠، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٦.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٠، ٣٦١، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٣، ٣٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٦، ١٥٧.

حاسما، ولا شك أن نجاح هذه الخطة سيعني قفزة كبيرة في الوضع العسكري والسياسي ليحيى بن عمر تزيد من أتباعه وأنصاره وتضعف من جانب الخلافة الضعيفة أصلا؛ فلهذا ولغيره، رأى يحيى أن يخرج بالجيش إلى ظاهر الكوفة، واختار أن يهجم عليهم ليلا، ولعله أراد أن يستر الليل حال جيشه غير المزود بالسلاح، فجرى بينهم قتال شديد في آخر الليل (١٢ رجب ٢٥٠هـ) فما أتى الفجر إلا وكانت القوة قد غلبت الشجاعة، وأصيب يحيى بن عمر بطعنة في ظهره فَخَرَّ صريعا، فانتهت بهذا حلقة أخرى في مسلسل ثورات العلويين التي لم تنجح أبدا! وأراد قائد أحد الجيوش التي أرسلها الخليفة أن يعاقب أهل الكوفة فيقتل منهم ويأسر، إلا أن نائب الكوفة منعه من هذا وعفا عن الجميع، فاستقر الأمر سريعا بغير دماء جديدة[١].

٢) الحسن بن زيد العلوي - طبرستان

كافأ الخليفة المستعين والي العراق محمد بن عبد الله بن طاهر بمزيد من الأراضي في ناحية طبرستان، فأرسل محمد كاتبه النصراني جابر بن هارون لتسلمها، فأخذ إلى جوارها أرضا لا ملك لأحد عليها، وكان أهل تلك المناطق يرعون فيها فساءهم هذا، ثم إن هذا أضيف إلى غضب أهل طبرستان والديلم على أميرهم سليمان بن عبد الله، وعلى الرجل الثاني محمد بن أوس الذي انتشر ظلمه هو وأولاده بين أهل طبرستان، فكان اجتماع هذين الشرين مما جعل أهل هذه المناطق يفيض بهم الكأس ويتمردون، فذهبوا إلى الحسن بن زيد العلوي وبايعوه، وانحاز إليهم بعض الأمراء المحليين في تلك الأنحاء وكثير من الديلم (أصحاب هذه البلاد) فقادهم واقتحم «آمل» عاصمة هذه المنطقة (٢٣ شوال ٢٥٠هـ)، واستولى عليها، ثم خرج لقتال سليمان بن عبد الله أمير طبرستان فانتصر عليه نصرا كبيرا وانسحب سليمان انسحابا مهينا حتى أنه لم يجد الوقت للهروب بأهل بيته، فاستولى الحسن بن زيد على الأموال والأسلحة والمتاع وبعث بأهل سليمان إليه مُكَرَّمين، وبهذا صارت طبرستان في حكم الحسن بن زيد[٢] الذي اتخذ لقب «داعي الخلق إلى الحق» وعُرف بلقب «الداعي الكبير»[٣].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦١، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢١.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٣ وما بعدها، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٤، ٣٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٨ وما بعدها.

(٣) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام ص٢٠.

ثم بدأ الحسن في التوسع فأرسل جيشا إلى «الري» التي كانت يومئذ في سلطة الطاهريين[١] فاستطاع الاستيلاء عليها، ثم توسع باتجاه همذان[٢].

والخلاصة أن الحسن بن زيد استخلص في مدة ثلاثة أعوام (من رمضان ٢٥٠هـ حتى ذي الحجة ٢٥٣هـ) جميع طبرستان وقسما مهما من الديلم والرِّي، وطرد عمال بني العباس وأتباعهم، وأخذ العلويون يتقاطرون عليه من الحجاز والشام والعراق بعد أن علا صيت شوكته وقدرته، وأقاموا في ولاياته[٣].

وبهذا أسس الحسن بن زيد الدولة الزيدية في طبرستان، وقد استمرت نصف قرن (٢٥٠هـ - ٣٠٠هـ)، وكان من أهم إنجازات هذه الدولة إدخال الديالمة في الإسلام؛ فقد «كان الديلم دار كفر يسبى من رقيقهم إلى أيام الحسن بن زيد، فتوسطهم العلوية وأسلم بعضهم»[٤]، فكان جهد الزيديين مما لم تتمكن الدولة الإسلامية من القيام به منذ أيام العباسيين الأولى حين أعيد فتح هذه المناطق، وذلك لطبيعتها الجبلية وصعوبة مسالكها[٥].

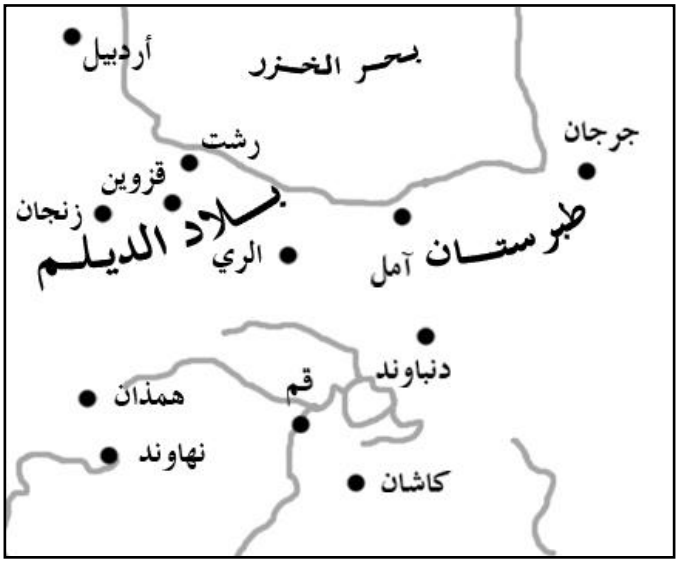

(١) الطاهريون: نسل طاهر بن الحسين الذي تولى أمر خراسان وما حولها، ثم أبناؤه من بعده تحت سلطة الخلافة العباسية.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٦٠.
(٣) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام ص٢٠، ٢١.
(٤) الاصطخري: المسالك والممالك ص٢٠٥.
(٥) د. فاروق عمر: الهاشميون الأوائل ص٣٠٤.

ثم ظهر في الري في يوم عرفة رجلان من العلويين: أحمد بن عيسى وإدريس بن موسى، فخطب أحمد بن عيسى ودعا إلى الرضا من آل محمد، وكان أحمد بن عيسى هو الذي تصدى لجيش أرسله محمد بن علي بن طاهر فانتصر عليهم فزادت قوته وتمكنه من الري[١].

على الجهة الأخرى نزل بالخليفة المستعين همٌّ كبير، واجتهد وصيف التركي –صاحب النفوذ الحقيقي وقتذاك– في تدبير الجيوش وإنهاء تمرد الحسن بن زيد العلوي.

٣) تمرد في حمص

إذ ثار أهل حمص على الوالي الفضل بن قارن حتى أنهم استطاعوا قتله (رجب ٢٥٠هـ)، فتوجه إليهم موسى بن بغا الكبير، فتصدى له جمع كبير أغلبهم من الكلبيين –بقيادة رجل اسمه دابر العفار[٢]– وجرى قتال كانت له الغلبة فيها بما معه من خبرة قتالية وجيش محترف أمام قوم من العامة، وقتل منهم كثيرا، وأخذ أشراف أهلها أسرى، ثم أحرق منها أماكن كثيرة عقابا لهم وتنكيلا بهم[٣]!

ويذكر اليعقوبي ثورة أخرى في الشام قادها يوسف بن إبراهيم التنوخي الملقب بـ«القصيص» في معرة النعمان، واستمرت فترة في مواجهات مع محمد بن المولد حتى قضى عليها، وكان قوامها من العرب الكلبيين[٤].

٤) تمرد عسكري

إذ ثار «الشاكرية» والجند في أرض فارس بقيادة علي بن الحسين بن قريش البخاري على عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم فهرب منهم فانتهبوا داره وقتلوا محمد بن الحسن بن قارن[٥].

المصير المحتوم

بدلا من أن تشغل هذه التمردات بال الخلافة ورجالها الأتراك في سامراء فتوحد صفهم،

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٦١.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٠.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٥٩، و الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٦، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٠/ ٤٠١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٦١.
(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٠.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٦، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢١.